بدر شاكر السياب

ارم ذات العماد

عند المسلمين ان شداد بن عاد بنى جنة لينافس بها جنة الله، هي « ارم ».
وحين اهلك الله قوم عاد اختفت ارم ؛ وظلت تطوف ، وهي مستترة ، في
الارض لا يراها انسان الا مرة في كل اربعين عاماً . وسعيد من انفتح له بابها.

من خَلَل الدخان من سيكارَهْ ،
من خلل الدخانْ
من قَدَح الشاي وقد نشّر ، وهو يلتوي ، ازارَهْ
ليحجبَ الزمان والمكانْ ،
حدّثنا جدُّ ابي فقال :
« يا صغارْ
مقامراً كنتُ مع الزمانْ ؛
نقوديَ الاسماكُ لا الفضّةُ والنُّضارْ
والوَرَقُ الشّباك والوِهارْ .
وكنتُ ذات ليْلَهْ
كأنما السماءُ فيها صَدَأٌ و قارْ ،
أصيدُ في الرُّمَيْلَهْ
في خَوْرها العميق ، اسمع المحارْ
مُوَسْوِساً كأنّما يبوح للحصى وللقفارْ

بموطن اللؤلؤةِ الفريدَهْ ،
فارهفُ السَّمْع لعلّي اسمع الحوارْ .
وكان من ندى الخريفِ في الدُّجى بُرودَهْ
تدبُّ منها رعشةٌ في جَسَدي فأسحبُ الدّثارْ .
وانفرج الغَيْمُ فلاحتْ نجمةٌ وحيدَهْ
ذكرتُ منها نجمتي البعيدَهْ
تنام فوق سَطْحها وتسمع الجِرارْ
تنضحُ (يا وَقْعَ حوافرٍ على الدروبْ
في عالم النّعاس ؛ ذاك عنترٌ يجوبْ
دجى الصحارى . انّ حيَّ عبلةَ المزارْ) .
فسرْتُ والسماء وجهتي ، ولا دليلْ ،
ارقبُ نجمها الوحيد ، والشُّعاعْ
يخْفتُ او يؤجُّ مانعاً ومانحاً ، وكالشراعْ
ترفع او تحطُّه الرياحُ في الصراعْ .
أسِرتُ الفَ خطوةٍ ؟ أسرتُ الف ميلْ ؟
لم أدرِ ... الا انني أمالني السَّحَرْ
الى جدار قلعةٍ بيضاءَ من حَجَرْ
كأنما الأقمار منذ الفِ عامْ
كانت له الطّلاءْ ،
كأنما النجوم في المساءْ
سلْنَ عليه ثم فاض حوله الظلامْ .
وسرتُ حول سورِها الطويلْ
أعدُّ بالخُطى مداه (مثل سندبادْ
يسير حول بيضة الرخّ ولا يكادْ

يعود حيث ابتدأا
حتى تغيب الشمسُ ، غشّى نورَها سوادْ ،
حتى اذا ما رفع الطرف رأى ... وما رأى ؟!)
حتى بلغتُ في الجدار مَوْضِعَ العِمادْ
تقوم فيه ، كالدجى ، بوابةٌ رهيبَهْ
غلّفها الحديدُ ، مدّ حَوْلها نحيبَهْ
أراه بالعيون لا تُحسُّه المسامعُ .
وقفتُ عندها أدقُّ .

يا صدىً ، أراجعُ
انتَ من المقابر الغريبَهْ ؟
أحسُّ في الصّدى
برودةَ الرّدي ،
أشمُّ فيه عَفَنَ الزمان والعوالِم العجيبَهْ
من ارمٍ وعادْ .
وحين كلَّ ساعدي
وملّني الوقوفُ في الظلامْ
(كناسكٍ ، كعابدِ
يرفضُه الإلهُ في معبده ، يظلُّ لا ينامْ
ولا يُريد الماءَ والطعامْ ،
يصيح : « كنْ على الهوى مساعدي
يا رافعَ السماء ، يا موزّعَ الغمامْ »)
جلستُ عند بابها كسائلٍ ذليلْ ،
جلستُ اسمعُ الصّدى ، كأنّه العويلْ ،
يلهثُ خَلْفَ حائطٍ من حَجَرٍ ثقيلْ .

كأنّ بين دقّةٍ ودقّةٍ يمرّ الفُ عامْ
وما أجاب العَدَمُ الخَواءْ .
وحين أوشكَ الصباحُ يهمس الضياءْ
نعستُ ، نمتُ ... واستفقتُ : مرّ الفُ جيلْ !
الشمس والفلاءْ
والغيْمُ والسماءْ
وكلُّ ما أراهْ
هناك حيث كان سورها ، المياهْ
تشعُّ في الخليجْ » .

وقال جدُّنا ولجّ في النشيجْ :
« ولن أراها بعدُ ، ان عمريَ انقضى
وليس يُرجع الزمانُ ما مضى .
سوف أراها فيكمُ ، فأنتم الأريجْ
بعد ذبول زهرتي . فان رأى ارمْ
واحدُكم ، فلْيطرقِ البابَ ولا ينمْ .
ارمْ ...
في خاطري من ذكرها ألمْ ،
حُلْمُ صبايَ ضاعَ ... آهِ ضاع حين تمّ
وعمريَ انقضى » .